العدالة الاجتماعية

ركن الوطنية والخلق والاقتصاد

بقلم الأستاذ سيد قطب

نشأ الشعور بالوطنية ، والإحساس بمعنى الوطن ، يوم نشأ نظام الجماعة المستقرة فى حيز من الأرض . ونشأ نظام الجماعة يوم شعر بضعة أفراد أن بينهم رابطة تعاونية يتبادلون على أساسها المغانم والمغارم ، و يأخذون على أساسها ويعطون .

كان الشعور بالوطنية ، والإحساس بالمجتمع ، بدائيين فى تلك الأيام ، ثم رتق الإنسان فارتقى إحساسه بالوطن والمجتمع ، ولكنه ظل قائما وسيظل كذلك أبد الدهر ... لابد من التضامن بين الوطن والمواطنين ، و بين المجتمع والأفراد ، حتى يشعروا للوطن بمعنى خاص وينظروا إليه بعين الإعزاز ، وحتى يحسوا للمجتمع بالاحترام و يعاملوه على أساس من الخلق ، وليس من الطبيعي أن تقوم العلاقات وتنمو الروابط على أساس أن يأخذ الوطن ولا يعطى ، أو يأخذ المواطنون ولا يعطون .

هذا هو الوضع الصحيح لنشأة الوطنية ، ونشأة الروح الاجتماعية ، وهو الوضع الذى ينبغى أن نلق إليه بالنا فى كل لحظة ، فلا نحمل بعض الأفراد أو بعض الطبقات أن يعطوا باستمرار دون أن نكافئهم بما يستحقون ، خيفة أن يأتى يوم يثقل عليهم المنح ، ويعز عليهم المنع ، فيكفون عن العطاء ، و يطالبون بالجزاء ، بصورة تؤثر على مصالح الوطن ونظام المجتمع .

وفى مصر ملايين من الطبقات التى تعطى كل يوم من جهودها ودمائها . ملايين يتقاضاها الوطن جهدها العضلى والعقلى طول العام فى الزراعة أو الصناعة أو الخدمة ، فهى المنتج الحقيقى للثروة وهى المولد الأصيل للطاقة التى تدور بها عجلة الحياة .

والوطن لايفتأ يطلب من هذه الملايين فوق الزراعة والصناعة والخدمة جهود خارقة حين يهم بالمشروعات العمرانية ، حين يشق الترع ويقيم الجسور والقناطر ويمد الخطوط الحديدية ... إلى آخر مايهم به ليلاحق خطوات الحضارة العلمية وليزيد الثروة العامة ، وليفتح له موارد جديدة .

ثم يتقاضى من هذه الملايين كلها ضريبة الدم ، و يقصرها عليهم حتى اليوم . وهى الضريبة المثالية ، التى يجب أن تنبع من الشعور الراقى بمعنى الوطن ، ومن شعور الإعزاز للمجتمع ، ومن الرحمة المشتركة فى حفظهما وحراستهما والذود عنهما بالفداء .

يجب إذن على هذا الوطن الذي يتقاضى من هؤلاء الملايين جهودهم ودماءهم أن يعوضهم خيرا من هذه الجهود والدماء، وأن يمنحهم مقابلها أجورا وخدمات اجتماعية وتقديرا وعطفا حتى يولد في نفوسهم من جديد الرغبة في بذل مجهود جديد، وتزويد هذا الوطن بفيض من الدم جديد.

لا يجوز إذن أن يكافئهم بأجور تقصر عن الطعام والشراب واللباس، فيدعهم حفاة عراة جياعا في كثير من الأحيان، بينما الآلة تنال غذاءها الكافي من الزيت أو الفحم، وبينما الماشية تنال كفايتها من البرسيم والتبن والعلف.

لا يجوز أن يجزيهم بالماء الكدر والمسكن القذر، وأن يهدي إليهم في كل موسم ميكروبات المرض حين يهدون إليه الذهب الأبيض أو الذهب الأصفر!

إنه يتقاضاهم ضريبة الدم فيجب ألا يعجزوا عن أدائها، وهم سيعجزون لأن أجسادهم قد هدها الجوع والمرض حتى باتت عاجزة عن الوفاء بشرائط الجندية.

نحن نشكو من عيوب اجتماعية وعلل خلقية تنمو في هذه الأوساط، وما من علة أو عيب إلا وإصلاحه في حيز المستطاع لو عاملنا هذه الملايين المعاملة اللائقة، وأشعرناهم بعناية الوطن بهم ورعاية المجتمع لمصالحهم. وأضرب على ذلك الأمثال.

نحن نشكو من جمود الفلاح المصري على الوسائل القديمة في الزراعة؛ هذه الوسائل التي لا تعطي إلا أضعف الغلات، بينما شعوب أخرى كالدانمرك وهولاند واستراليا مثلا؛ وأراضيها ليست أخصب من الأراضي المصرية تنبت الغلات ومحصولات متنوعة تعود على الثروة الفردية والثروة القومية بأجزل الفوائد.

وهي شكوى صحيحة. ولكن هل نحن علمنا هذا الفلاح حتى يتفتح ذهنه للوسائل الزراعية الجديدة كما صنعت الدانمرك؟ هل وفرنا له المسكن المناسب والماء الصحي والغذاء المقوي، حتى نغريه الصحة بالجهد كما صنعت هولاندا؟ هل أعطيناه نصيبا مناسبا من الغلة حتى تتفتح نفسه للعمل كما تصنع استراليا؟ لقد جربت الجمعية الزراعية الملكية أن توفر هذه المزايا لفلاحيها فأعطوها أكثر مما كانوا يعطون، وكسبت أوفر مما كانت تكسب. والوطن كله يستطيع أن يصنع ما صنعته الجمعية الزراعية لو توافرت العقيدة الاجتماعية في نفوس الجميع.

ونحن نشكو من سوء ذوق العامل المصري في صناعته، ومن عدم مبالاته بالعيوب الصغيرة التي تهبط بمستوى الصناعة، وهي شكوى صحيحة، ولكن هل حاولنا أن نرفع المستوى العملي للصانع المصري فندرسه دراسات تحليلية مثلا أو مرتجلة في بعض شهور السنة، فنجعله يتطلع إلى الاتقان والإبداع؟ هل حاولنا أن نعطيه من الأجر ما يرفع مستوى حياته فيرتفع بذلك ذوقه ويدق إحساسه، ويعطينا من الجهد ومن الدقة في صناعته ما يعوضنا عن الأجر المرتفع

للذى نبذله لله ؟ هل حاولنا أن نمنحه من الراحة بتقليل ساعات العمل ، ومن الطمأنينة بالضمانات الاجتماعية ، ما يجعله قادرا على الانصراف بجهده كله وعقله كله إلى إتقان الصناعة ووفرة الإنتاج ؟

لقد ثبت فى الأمم الصناعية ولا سيما فى أمريكا أن بناء مساكن صحية للعمال ومنحهم إجازات مناسبة وراحات معقولة وضمانات مطمئنة ، وموالاتهم بالخدمات الاجتماعية الأخرى ، أن هذا كله يعود على الصناعة ذاتها بالوفر والربح ، وأن أصحاب العمل هم الرابحون بما ينفقون . والوطن يستطيع أن يوفر لعماله ما وفرته الأوطان الأخرى ثم يرقب نتيجة التجربة .

ونحن نشكو من قذارة الصناع والباعة الجوالين ومن احفاة المتسولين والمتشردين والمشبوهين إلى آخر هذه الوصمات التى نجعل كلما وقعت عليها عين أجنبى وراح يسجلها بعد مسة يمحيى بها تذكارا سيئا لمصر والمصريين .

فهل حربنا أن نرفع مستوى هؤلاء الصناع والباعة ، وأن نوجد من المنشآت ونوفر من الجماعات ما يضم المتسولين والمتشردين والمشبوهين ، ويكفل لهم الخدمة الاجتماعية المكفولة لأمثالهم فى جميع بلاد العالم المتمدينة ؟

إن الحفاء والقذارة هما مظهرا الفقر . وما ارتفع دخل عامل أو صانع أو بائع صغير حتى تناسق هندامه واستعت قدماه وبدت عليه النظافة . فقبل أن نلوم هؤلاء الفقراء على قذارتهم وقبل أن نخجل من حفائهم يجب أن نفكر فى زيادة دخلهم . وليس من الضرورى أن يزيد دخلهم عن طريق الإحسان أو إمدادهم بالمساعدات ، فهناك طرق أدوم أثرا وأنفع وهى إمدادهم بالثقافة وتنوير أذهانهم ، وإرشادهم إلى وسائل الكسب فى أقسام ليلية مثلا ينشئها متطوعون تفيض نفوسهم بالعطف على المواطنين البائسين .

* * *

ونحن نشكو من سوء أخلاق الكثير من الطبقات . كميلهم إلى الغش والخداع والكذب والأذى والعبث بممتلكات الغير . . . إلى آخر ما يدل على انعدام الشعور الاجتماعى وضعف الوازع الخلقى .

وهذه الشكوى صحيحة . ولكن هل حاولنا أن نشعرهم بعطف الوطن عليهم ورعاية المجتمع لهم ثم نجرب أثر هذا فى نفوسهم ؟

إن هؤلاء الناس ليسوا شريرين إلى الحد الذى نتصوره ، وقد يكون الشر الذى يبدو منهم مجرد رد فعل لما يذوقونه من البؤس والحرمان والقسوة والاضطهاد .

ولقد حاولت أن أقوم ببعض التجارب الفردية فى هذا الموضوع ، والى القراء بعض هذه التجارب :

أولا — كنت أشترى من بائعة جوالة زوجا من الأرانب ، فحاولت أن تدس لى أرنبة مريضة فى الزوج الذى قدمته لى . وفطنت إليها ولكننى تغافلت ومضيت فى الصفقة ، وبعد أن تمت كما تريد ، رأيتها تقضم لقمة جافة من الخبز الحاف فناديت خادمى وكلفته أن يأتى لها بصحفة من الخضار وكوب من الماء لتأكل على باب المنزل . وبعد أن أكلت وشكرت وهمت بالذهاب اذا هى تطلب الى لأرنبتين إذا هى تقول : سأعطيك " فردة " سمينة بدل هذه جزاء فضلك ، واذا هى تستبدل بالمريضة أخرى صحيحة وتمضى .

ما الذى جال فى خاطر هذه المرأة الحافية الفقيرة أولا وأخيرا ؟ لقد فكرت أولا أننى أسكن فى بيت وجيه وأن حولى حديقة وأن النعمة تبدو على الدار ، بينما هى تلتظى حر الشمس حافية جائعة ، وهذه الأرنب لو ماتت عندها تضر ماليتها ضررا بليغا بينما لو ماتت عندى لا تؤثر من ماليتى ، فقدمتها لى غشا وخداعا ، ثم رأت من هذا الرجل رحمة وعطفا فاستيقظ ضميرها وأخذت الأرنب المريضة لتغش بها بيتا آخر قاسيا جحودا !

ثانيا — فى طريق الى المنزل ملت إلى بائع جرجير لا يزيد رأس ماله على قروش فطلبت منه بمليمين فقدم لى خمس حزم ودفع لى فى بقية نصف القرش مليما زائفا ، ولمحت هذا المليم الزائف فابتسمت ثم رددت له حزمة من الخمس قائلا : خذ هذه لك ويكفى أربع حزم بمليمين وإلا فماذا تربح إذا بعت خمسا وقد يكون لك أولاد وزوجة يعيشون من هذا الربح ؟ وبهت الرجل لهذه المفاجأة التى لم يتعودها ، ودعا وشكر . ومضيت . وإذا بالرجل يدعونى ليقول لى : إنه اكتشف أنه أعطانى مليما زائفا من قبيل الخطأ وهذا المليم دسه عليه أحد أولاد الحرام .

ثالثا — منذ شهر أو يزيد تركنى خادمى ومضى دون سابقة إنذار ، وفى ذمته لى أجرة شهر كان أخذها مقدما ، وكان قد أخذ مبالغ لشراء بعض الحاجيات من السوق فمال إلى قهوة لخمس هذا المبلغ وخاف العودة فمضى هاربا .

وقابلنى أحد أقربائه وفهمت أن الخادم لن يعود الى البيت خوفا من القبض عليه أو إيذائه فأظهرت له عطفى على قريبه واستعدادى للصفح عنه ، وأننى لم أبلغ البوليس عن فعلته ، ومع هذا فأنا لا أريد أن يعود إلى خدمتى ، وكل ما هنالك أننى لن أكون سببا فى إيجاد سابقة له تمنعه من العمل .

ومنذ أيام وردت إلى رسالة من هذا الخادم يعلن فيها توبته وعزمه على العمل عندى حتى يوفى لى دين عليه ، وأكون بعد ذلك حرا فى إبقائه أو طرده .

واستطعت أن أفهم ما جال بخاطر هـذا الخادم الجاهل ، وهو ما جال من قبل بخاطر بائعة الأرانب و بائع الجرجير .

إن هؤلاء الناس ليسوا شريرين إلى الحد الذى نتصوره ، وليس إصلاحهم مستعصيا وردهم إلى السياج الخلق والشعور الاجتماعى ليس ببعيد .

* * *

نحن نطلب من هذه الملايين أن يكون لها شعور وطنى يلبى حاجتنا إلى النهوض ، وأن يكون لها خلق اجتماعى نعتمد عليه فى إنشاء المجتمع الجديد ، ولكننا لانعاونها أية معاونة على تكوين هذا الشعور . فيجب أن نعطيها ما تستحق من الجزاء على ما تبذل من جهد ، وأن نتيح لها فرص النجاح فى الحياة بتزويدها بأسلحة النضال فى الحياة (العلم والصحة والمـال) وأن نحقق لها العدل الاجتماعى الذى يرهف إحساسها بالمجتمع ويقوى شعورها بالتضامن .

لا بد أن يرعى الوطن مصلحة الفرد ، وأن يشعره بالعناية والعطف والإعزاز ، حتى يبادله الفرد هـذا الشعور . وكلما أحس المواطن أن له فى الرخاء العام نصيبا ، وأن نصيبه فى الخير والشر مرتبط بنصيب هـذا الوطن منهما ، ازداد تعلقا بوطنه ، وتقديرا لمجتمعه ، وغدا عضوا نافعا حريصا على راحة المجموع .

فلنجرب فى ميـدان أوسع وبوسائل أكثر ، مثل هذه التجارب التى قمت بهـا كفرد فى محيط ضيق و بوسائل محدودة .

إن الوطن يستطيع ، والمجتمع يستطيع ، فلا يقعد أحدهما أو كلاهما عما يستطيعه وفيه خير للجميع .

سيد قطب

مدح بعضهم الإمام على فى وجهه فقال :

اللهم إنك أعلم بى من نفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم ، اللهم اجعلنا خيرا مما يظنون ، واغفر لنا ما لا يعلمون .